نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي
Al Jasrah Cultural & Social Club

سلسلة الذين أضاءوا الدَّرب ٧

أيُّها الطِفْلُ العَرَبِيُّ لكَ تَارِيْخٌ عَرَبِيٌّ مُشَرِّفٌ، فَاقْرَأْ، وَتَعَلَّمْ، واعْمَلْ.

هارونُ الرَّشيدُ

الخليفةُ العابدُ المجاهدُ

بقلم
د. سناء شعلان

رسم: عاصف نصري

هارونُ الرّشيدُ

"الخليفةُ العابدُ المجاهدُ"

د. سناء شعلان

قدرُ هارونَ الرّشيدِ

في ليلةٍ مباركةٍ -كانتْ بدايةَ عصرٍ ذهبيّ للدّولةِ الإسلاميّةِ في العصرِ العبّاسيّ- وُلِدَ الأميرُ هارونُ بنُ محمدِ بنِ عبدِاللّهِ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللّهِ بنِ العبّاسِ، الملقّبِ بهارونَ الرّشيدِ، وذلكَ في مدينةِ الرّيِّ (مدينةٍ تقعُ في الجنوبِ الشّرقيِ من مدينةِ طهرانَ عاصمةِ إيرانَ) في عامِ ١٤٨ هـ، وفتحَ عينيه على الدّنيا ليجدَ نفسَهُ أميراً في حضنِ الخلافةِ العباسيّةِ؛ فوالدُهُ أبو عبدِ اللّهِ محمدٍ المهديّ، وكانَ حينئذٍ (في ذلكَ الوقتِ) والياً (حاكماً) على

الرّيّ وخراسانَ (هو إقليمٌ يضمُّ أفغانستانَ وأجزاءَ من تركمانستانَ وجزءاً من إيرانَ) من قبلِ والدِهِ الخليفةِ المنصورِ، ثم أصبحَ فيما بعد الخليفةَ العباسيَّ الرّابعَ.

لم يكنْ مولدُ هارونَ الرّشيدِ أمراً عادياً، شأنُهُ شأنُ أيِّ طفلٍ آخر في هذهِ الدّنيا، بل كانَ طفلاً في انتظارِهِ أمورٌ عظيمةٌ، ومسؤولياتٌ جسيمةٌ (عظيمةٌ)، لذلكَ فقدْ طفقَ (بدأَ) والدُهُ منذُ نعومةِ أظفارِهِ (منذُ طفولتِهِ) يعدّهُ لمهمتِهِ العظيمةِ المنتظرةِ، وهي قيادةُ المسلمين.

وقد مَنّ اللّهُ على هارونَ الرّشيدِ، فوهبَهُ (أعطاهُ) وجهاً جميلاً، وفطنةً (ذكاءً) كبيرةً، ورغبةً عظيمةً في التّعلّمِ، وحبّاً لا يعرفُ حدوداً للعلماءِ، وقلباً شجاعاً يحبّ الدّفاعَ عن الإسلامِ والمسلمين. وهذه الصّفاتُ الفريدةُ جعلتْ والدَهُ الخليفةَ يستبشرُ بِهِ خيراً، ويعدّهُ لتولّي المناصبِ القياديّةِ في الدّولةِ.

وفي حينِ كانَ الأطفالُ يلهون ويلعبون، كانَ الطفلُ هارونُ الرّشيدُ يعيشُ حياةً عسكريّةً، ويقطعُ (يمضي) أوقاتَهُ يعملُ بجدٍّ ومثابرةٍ في تعلّمِ فنونِ القتالِ والحربِ ممّن حولَهُ من القادةِ الأكْفاءِ (جمعُ كفوٍّ، وهوَ المرءُ الذي يجيدُ العملَ والتّدبيرَ) الذين يتأسّى بهم (يقتدي بِهِم)، ويتعلّمُ من تجاربِهِم وخبراتِهِم، أمثالُ يحيى بنِ خالدٍ البرمكيّ، والرّبيعِ بنِ يونسَ، ويزيدَ بنِ مزيدٍ الشيبانيّ، والحسنِ بنِ قحطبةِ الطّائيّ، ويزيدَ بنِ أُسيدٍ السّلميّ، حتى غدا (أصبحَ) فارساً قويّاً شجاعاً يتقنُ فنونَ الحربِ وخططِهَا، ويتمنّى أن يحظى بالشّهادةِ في سبيلِ اللّهِ.

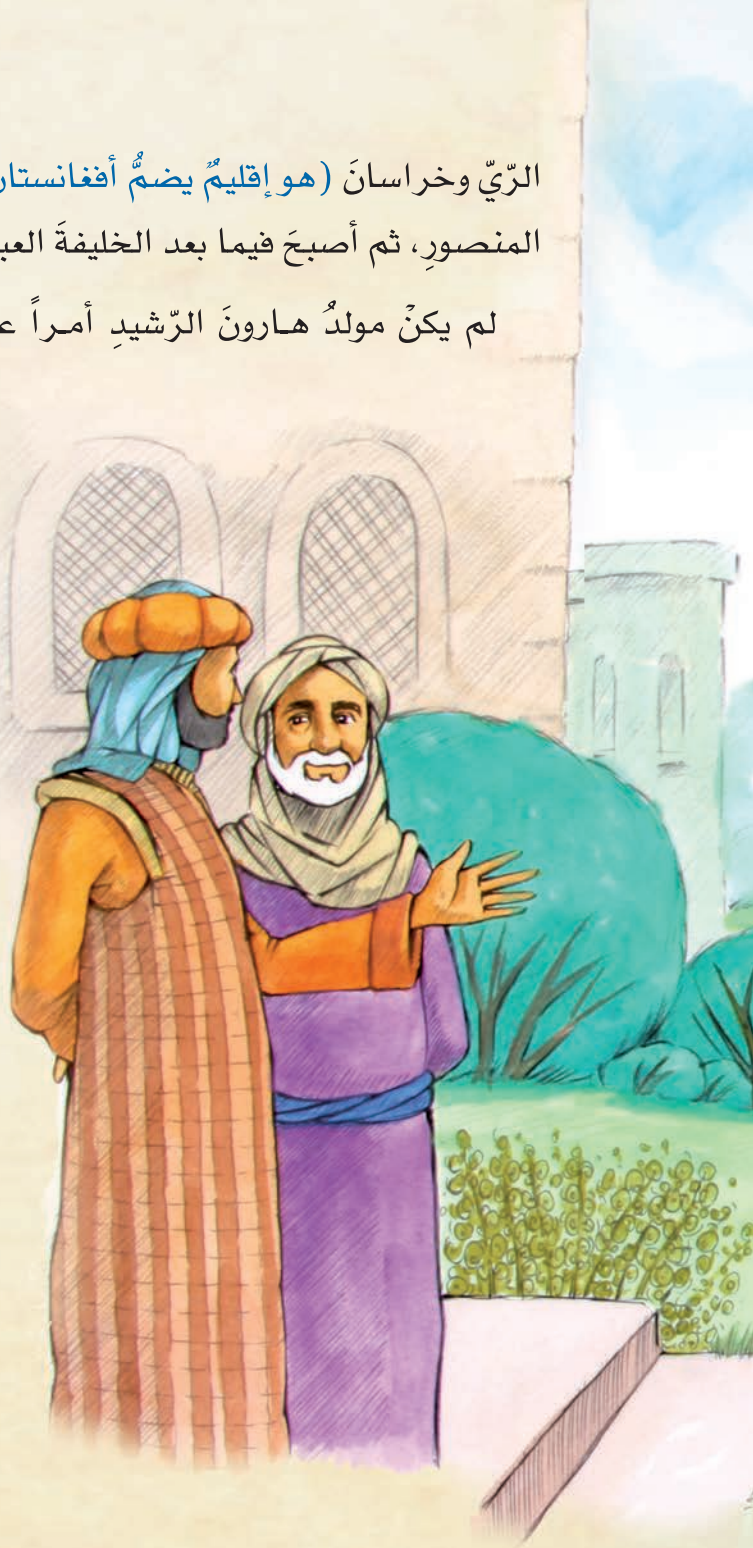

وسرعانَ ما عُيّن هارونُ الرّشيدُ الشّابُ أميراً لحملةٍ عسكريّةٍ تُسمّى "الصّوائف"؛لأنّها تخرجُ للجهادِ في الصّيف، وكذلك أميراً لحملةِ "الشّواتي" نسبةً إلى الشّتاءِ الذي تخرجُ للجهادِ فيهِ؛ لتهديدَ العدوِّ البيزنطيّ، وتخويفاً لَهُ، ثم ولاّهُ أبوهُ بلادَ المغربِ كلّهَا.

قلبٌ محبٌّ للعلمِ

أحبّ هارونُ الرّشيدُ دينَهُ الإسلامَ حبّاً عظيماً؛ ولذلكَ فقدْ أقبلَ على العلمِ بكلِّ رغبةٍ ونشاطٍ؛ لأنَّ الإسلامُ يحضُّ (يحثُّ على الأمرِ بشدّةٍ) على التّعلّمِ، وكانَ من طيبِ حظّهِ أن عهدَ بِهِ أبوهُ الخليفةُ المهديّ إلى حشدٍ كبيرٍ من علماءِ عصرِهِ يقومون بتهذيبِهِ وتعليمِهِ وتثقيفِهِ، وعلى رأسهم العالمان الكسائيّ والمفضّل الضّبيّ، وهما من أشهرِ علماءِ اللغةِ والأدبِ العربيّ.

وبلغَ من شغفِ (حبٍّ شديدٍ) هارونَ الرّشيدِ بالعلماءِ أن ضمَّ قصرُهُ ما لم يضمّهُ قصرُ غيرِهِ من الملوكِ والخلفاءِ من العلماءِ والشّعراءِ والفقهاءِ والقرّاءِ (جمعُ قارئٍ، وهوَ مَنْ يقرأُ القرآنَ ويحفظُهُ) والقضاةِ والكتّابِ والموسيقيين والنّدماءِ (جمعُ نديمٍ، وهوَ المصاحبُ في السّهرِ).ويكفي القولُ إنّ مجلسَهُ قدْ حوى من العلماءِ القاضي أبا يوسف والشّاعرَ مروانَ بنِ حفصةَ والعبّاسَ بنَ محمدٍ، والفضلَ ابنَ الرّبيعِ وإبراهيمَ الموصليّ.

وقدْ عاشَ في عصرِ هارونَ الرّشيدِ الكثيرُ من كبارِ العلماءِ أمثال عبدِ اللّهِ بنِ مباركٍ واللّيثِ بنِ سعدٍ ومالكِ بنِ أنسٍ وسيبويهِ ومحمدِ بنِ الحسنِ صاحبِ أبي حنيفةَ.

وبلغَ من إجلالِ هارونَ الرّشيدِ للعلماءِ، وحبّهِ للعلم، أنّهُ كانَ يصبُّ الماءَ بعدَ الطّعامِ على أيدي العلماءِ الذين كانوا هم أيضاً يجلّونَهُ (يعظّمُهُ)، ويحترمونَهُ،

ويقدّرون مكانتَهُ الرّفيعةَ في العلمِ، ويعظونَهُ (ينصحونَهُ) دونَ خوفٍ منهُ، ويرشدونَهُ إلى الخيرِ، فيبكي بحرقةٍ خوفاً من اللّهِ؛ إذ هو راعي المسلمين والمسؤولُ عنهم أمامَ الخالقِ عزَّ وجلَّ.

كذلكَ كانَ يرحلُ بولديهِ الأمينِ والمأمونِ إلى المدينةِ المنوّرةِ لسماعِ الموطّأ (هوَ كتابٌ للإمامِ مالكِ بنِ أنسٍ، وهوَ أوّلُ كتابٍ وُضعتْ فيهِ الأحاديثُ النّبويةُ مصنفةً ومبوبةً، واستغرقَ تأليفُهُ أربعين سنةً) من الإمامِ مالكٍ بنِ أنسٍ، وما عُرفَ عن خليفةٍ غيره الرّحيلُ من أجلِ العلمِ.

وهذا العلمُ الوفيرُ قد شحذَ (شكّلَ) هارونَ الرّشيدَ على خيرِ وجهٍ، فكانَ حازماً كريماً متواضعاً عادلاً صادقاً محبّاً للحكمةِ وكارهاً للجدالِ والنّفاقِ والغدرِ شهماً فارساً شجاعاً، ولذلكَ كلّهِ لُقّبَ بـ "جبّارِ بني العبّاسِ".

وكي ينقلَ هارونُ الرّشيدُ العلمِ إلى كلِّ المسلمين، فقدْ أنشأَ بيتَ الحكمةِ، وزوّدها بأعدادٍ كبيرةٍ من الكتبِ والمؤلّفاتِ من شتّى بقاعِ الدّنيا، وكانتْ تضمُّ غرفاً كثيرةً تمتدُّ بينها أروقةٌ (جمعُ رواقٍ، وهوَ ركنٌ في ندوةٍ للتلاقي والتّشاورِ) طويلةٌ، وخُصّصتْ بعضها للمحاضراتِ، والأخرى للنّاسخين والمترجمين والمجلّدين.فأصبحتْ منارةً للعلمِ، يوليها هارونُ الرّشيدِ كلَّ الاهتمامِ والعنايةِ.

الخليفةُ المجاهدُ

بدأَ هارونُ الرّشيدُ حياتَهُ مجاهداً، ففي سنةِ ١٦٥هـ خرجَ على رأسِ حملةٍ عسكريّةٍ ضدَّ الرّوم، وعادَ منتصراً منها، فكوفئَ بأنْ جعلَهُ والدُهُ الخليفةُ ولياً ثانياً للعهدِ بعدَ أخيهِ أبي محمدٍ موسى الهادي.

وشاءَ اللّه أن تكونَ حياةُ هارونَ الرّشيدِ كلُّهَا جهادٌ، ففي العامِ ١٧٠ هـ أصبحَ خليفةً بعدَ أخيهِ الخليفةِ المُتوفّى الهادي، ليكونَ بذلكَ الخليفةَ العباسيّ الخامسَ من سلالةِ بني العبّاسِ الذين جعلوا بغدادَ عاصمةً لهم.

ومنذُ اللحظةِ الأولى كانَ الجهادُ في انتظارِ هارونَ الرّشيدِ الذي كان يؤمنُ بقوةِ بأنّ العدلَ والجهادَ هما دعامتا أيّ دولةٍ إسلاميّةٍ عزيزةٍ، ولذلكَ فقدْ كتبَ على قلنسوتِهِ (قبعةِ الرّأسِ) "غازٍ حاجّاً". وهجرَ الملذّاتِ واللّهوَ (اللّعبَ)، ونذرَ نفسَهُ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ، والقضاءِ على أيّ تهديدٍ يواجهُ الإمبراطوريةِ الإسلاميّةِ، ورفضَ أن يضعفَ أمامَ أيّ عدوٍّ للإسلامِ، وكانَ كلّما سمعَ حديثَ الرّسولِ ﷺ: "والذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لوددتُ أنّي أغزو في سبيلِ اللهِ فأُقتلُ، ثم أغزو فأُقتلُ، ثم أغزو فأُقتلُ" يبكي بقوةٍ حتى ينتحبَ (يبكي بصوتٍ مرتفعٍ).

وكانَ لهارونَ الرّشيدِ حربٌ طويلةٌ لم تتوقّفْ طوالَ حياتِهِ مع الرّومِ، بدأتهَا "إيريني" ملكةُ الرّومِ بطلبِ الصّلحِ ودفعِ الجزيةِ (هي مالٌ يؤخذُ من أهلِ الذّمةِ) للمسلمين، وذلكَ في العامِ ١٨١هـ، إلى أن قامَ ملكُ الرّومِ الجديدِ "نقفورُ" بنقضِ الهدنةِ، والتوّقفِ عن دفعِ الجزيةِ، ثم أرسلَ كتاباً (رسالةً) إلى هارونَ الرّشيدِ يقولُ فيهِ: "من نقفورَ ملكِ الرّومِ إلى ملكِ العربِ، أمّا بعدُ؛فإنّ الملكةِ إيريني التي كانتْ قبلي أقامتكَ مقامَ الرّخِ (طائرٍ أسطوريٍّ عملاقٍ)، وأقامتْ نفسَهَا مقامَ البيدقِ (الطّائرِ الصّغيرِ)، فحملتْ إليكَ من أموالِهَا أحمالاً، وذلكَ لضعفِ النّساءِ وحمقهنّ، فإنْ قرأتَ كتابي فاردُدْ ما حصلَ قبلكَ من أموالِهَا، وافتدِ نفسَكَ، وإلاّ فالحربُ بيننا وبينكَ".

فلمّا قرأَ هارونُ الرّشيدُ الكتابَ استشاطَ غضباً (غضبَ بقوةٍ) حتى لم يتمكّنْ أحدٌ من النّظرِ إلى وجههِ فضلاً عن أن يكلّمَهُ، وتفرّقَ جلساؤهُ، ثم كتبَ إليهِ مباشرةً على ظهرِ كتابِهِ بقوةِ المسلمِ القويِّ الواثقِ بربّهِ الرّافضِ لأيِّ ذلٍّ أو مهانةٍ: "بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ، من هارونَ أميرِ المؤمنين إلى "نقفورَ" كلبِ الرّومِ، فقدْ قرأتُ كتابكَ يا ابنَ الكافرةِ، والجوابُ ماتراهُ لا ماتسمعُهُ".

وجهّزَ هارونُ الرّشيدُ جيشاً عملاقاً من المسلمين طارَ بِهِ إلى مدينةِ هرقلةَ (مدينةٍ بالقربِ من القسطنطينيةِ في تركيا) وحاربَهُ حرباً ضاريةً (قويّةً) جعلتْهُ يتوسّلُ الهدنةَ والصّلحَ مع هارونَ الرّشيدِ، وحملَ إليهِ مالَ الجزيةِ، ولكنّه سرعانَ ما عادَ إلى نقضِّ الصّلحِ، فسارَ هارونُ الرّشيدُ إليهِ من جديدٍ في عام ١٨٨ هـ بجيشٍ جرّارٍ (كبيرٍ)، وهزمَهُ شرَّ هزيمةٍ حتى إنّهُ قتلَ من جندِهِ أربعين ألفَ رجلٍ، وجرحَ "نقفورَ" الذي سارعَ من جديدٍ إلى طلبِ الصّلحِ، وقبلَ بفداءِ أسرى المسلمين، فلم يبقَ أيُّ أسيرٍ مسلمٍ في سجونِ الرّومِ، فابتهجُ المسلمون بذلكَ.

إلاّ أنّ نقفورَ عادَ من جديدٍ إلى نقضِ الصّلحِ، وعادَ بجيشٍ ضخمٍ عدده ١٣٥ ألفَ جنديّ لمهاجمةِ حدودِ الدّولةِ العباسيّةِ، فكانَ لَهُ المسلمون في المرصادِ، وهزموهُ من جديدٍ، فعادَ وجيشُهُ إلى بلدِهِ يجرُّ ذيولَ الخيبةِ والهزيمةِ، وتعّهدَ بدفعِ الجزيةِ صاغراً (ذليلاً) واتفقَ مع هارونَ الرّشيدِ على أن لا يعمرَ مدينةَ هرقلةَ من جديدٍ.

وهذا النصّرُ قادَ هارونَ الرّشيدَ إلى المزيدِ من الجهادِ دونَ أن يعرفَ كللاً (مللاً) أو تهاوناً، ففتحَ مدينةَ هرقلةَ، وأرسلَ الجيوشَ الإسلاميّةَ تحتَ إمارةِ خيرِ قوّادِهِ تجوبُ الآفاقَ، وتفتحُ البلادَ، وتنشرُ الإسلامَ، وتعظّمُ شأنَ المسلمين في عيونِ الآخرين، ففتحَ أرضَ الدّيلمِ (ناحيةٍ من بلادِ إيرانَ) وما وراءَ النّهرِ، وفتحَ الكثيرَ من أرضِ الرّومِ وجزيرةِ كريت.

وشدّةُ حرصِ هارونَ الرّشيدِ على رعيتِهِ وعلى سلامتِها جعلتهُ متبصّراً بأحوالها، لايسمحُ بأيّ فسادٍ أو تمرّدٍ أو ثورةٍ، وما كانتْ تظهرُ أيُّ ثورةٍ إلاّ أرسلَ إليها جيشاً يخمدُهَا، ويقضي على من قامَ بها، ويصلحُ الأحوالَ من جديدٍ.

وعندما تنبّهَ هارونُ الرّشيدِ لفرطِ (لشدّةِ) نفوذِ البرامكةِ في دولتِهِ، وسيطرتهم على الأمورِ، ومآلِ الكلمةِ العليا في الدّولةِ إليهم، حتى كادتْ سلطتُهم تطغى على هارونَ الرّشيدِ نفسِهِ، وكانوا من أصلٍ فارسيّ، سارعَ إلى هدمِ سلطتِهم، وتشريدِهم وإبعادِهم عن الحكمِ، وجعلَ مكانَهُم عرباً يساعدونهُ في الحكمِ.

وقوةُ هارونَ الرّشيدِ لم تمنعه من أن يكونَ محبّاً للسّلامِ، وساعياً إليه مع كلِّ من يحترمُ الإسلامَ، ولايضمرُ شراً للمسلمين، فذاعَ صيتهُ (أصبحَ مشهوراً)، وأرسلتْ الهندُ والصّينُ وأوروبا رسلَهَا إلى بلاطِهِ تطلبُ ودَّهُ وصداقتَهُ، وكانتْ صداقةُ هارونَ الرّشيدِ مع ملكِ فرنسا كارلوسَ الكبيرِ الملقّبِ بشارلمانَ هي الأشهرُ، ويقالُ إنّهما كانا يتبادلان الهدايا النّادرةَ، وقدْ أهداهُ

هارونُ الرّشيدُ حيواناتٍ نادرةً، منها فيلٌ عملاقٌ، وأقمشةٌ فاخرةٌ، وشمعداناتٌ، وساعةٌ كبيرةٌ من البرونزِ المطليّ بالذّهبِ مصنوعةٍ في بغدادَ، وحينما تدقُّ ساعةَ الظّهيرةِ، يخرجُ منها اثنا عشرَ فارساً من اثنتي عشرةَ نافذةً تُغلقُ من خلفِهم، وقد تملّكَ العجبُ شارلمان وحاشيتهُ من هذهِ السّاعةِ، وفزعوا منهَا؛إذ ظنّوا أنَّ فيها سحراً.

الرّعيّةُ السّعيدةُ

عرفتْ الإمبراطوريّةُ الإسلاميةُّ العبّاسيّةُ في إبّانِ (في زمنِ) خلافةِ هارونَ الرّشيدِ كلَّ الخيرِ والبركةَ والقوةَ والأمنَ، فهارونُ الرّشيدُ الخليفةُ المجاهدُ العابدُ قد وفّرَ كلَّ أسبابِ الرّخاءِ والرّفاهيةِ والنّماءِ في إمبراطوريتِهِ حتى سمّيتْ فترةُ حكمِهِ بـ "أيامِ العروسِ" لكثرةِ خيرِهَا وخصبِهَا.

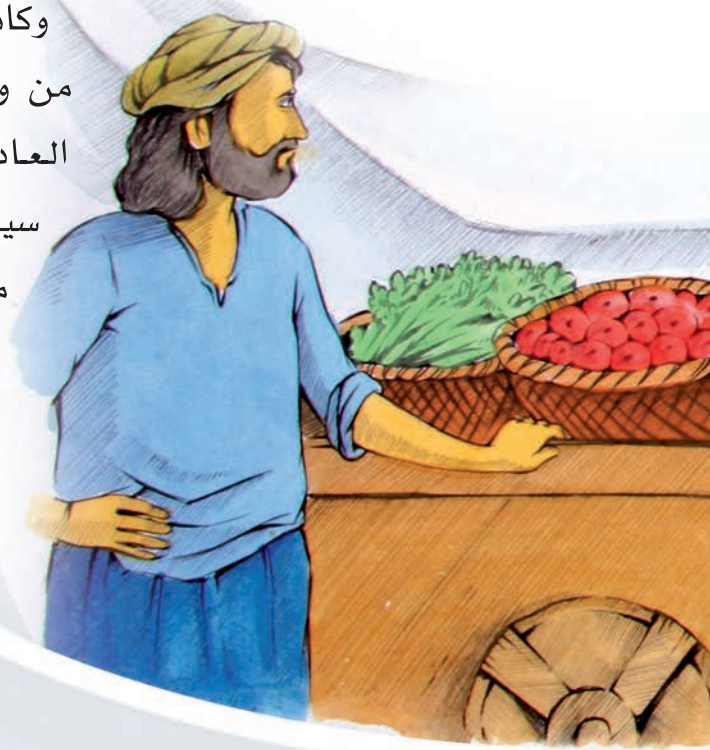

وكانتْ الإمبراطوريّةُ الإسلاميّةُ حينَهَا كبيرةً مترامية الأطرافِ، ممتدّةً من وسطِ آسيا إلى المحيطِ الأطلنطي، ومختلفةَ البيئاتِ، ومتعدّدةَ العاداتِ والتّقاليدِ، وتحتاجُ إلى خليفةٍ مثلِ هارونَ الرّشيدِ؛ ليحسنَ سياستَهَا في وقتٍ كانتْ فيه وسائلُ الاتّصالِ صعبةً، ومتابعةُ الأمورِ مجهدةً.

ولكنّ هارونَ الرّشيدَ الذي كانَ عمرُهُ لم يتجاوزَ الخامسةَ والعشرين قد أحسنَ سياسةَ ملكِهِ، وأقامَ العدلَ والرّحمةَ في رعيّتِهِ، وردَّ المظالمَ إلى أهلِهَا، واستقصى (تحرّى في الأمرِ، وعرفَهُ بشكلٍ صحيحٍ) أحوالَ المسلمين بنفسِهِ، حتى إنّهُ كانَ ينزلُ إلى الأسواقِ والأحياءِ ليتفقّدَ الأحوالَ.

وقد عمّرَ مدنَ الثّغورِ (هي المدنُ الواقعةُ على الحدودِ مع الأعداءِ)، وأحاطَهَا بالأسوارِ والقلاعِ والحصونِ والأبوابِ القويّةِ، بعد أن كانَ الرّومُ قد هدّموا معظمَهَا وأحرقوهَا، وقامَ بتشييدِ مدنٍ جديدةٍ، كما أعادَ إلى الأسطولِ البحريّ الإسلاميّ قوتَهُ، وأعادَ بناءَهُ، كما أنشأَ داراً لصناعةِ السّفنِ.

وحرصَ هارونُ الرّشيدُ على أن يخفّفَ الأعباءَ الماليةَ عن الرّعيةِ، ومنعَ جمعَ الأموالِ والضّرائبِ من النّاسِ من غيرِ وجهِ حقٍ، وألغى ضريبةَ العُشرِ التي كانت تُؤخذُ من الفلاحين بعدَ النّصفِ، وعهدَ إلى القاضي أبي يوسفَ، وكانَ قاضي القضاة في بغداد، بتنظيم أمورِ الدّولةِ الماليّةِ، فألّفَ كتابَ "الخراجِ" واضعاً فيه نظاماً شاملاً للخراجِ (هو المالُ الذي يُدفعُ عن الأرضِ بشكلٍ سنويّ) بما يتّفقُ مع الشّريعةِ الإسلاميّةِ.

وبسببِ هذا العدلِ، فقدْ شهدت الدّولةُ رخاءً كبيراً، وفاضتْ الأموالُ في خزينةِ دارِ مالِ المسلمين، واستغلّتْ في بناءِ الحياةِ الاقتصاديّةِ، وتمويلِ العمرانِ، وازدهارِ العلومِ والفنونِ.

ونظّمَ هارونُ الرّشيدُ طرقَ الوصولِ إلى الحجازِ، وبنى القصورِ والمنازلِ على طولِ الطّريقِ إلى مكةِ المكرّمةِ؛طلباً لراحةِ الحجّاج، وعملتْ زوجتُهُ زبيدةُ على إيصالِ الماءِ إلى مكةَ من عينِ ماءٍ تبعدُ عنها نحوَ ثلاثين ميلاً، ثم حدّدتْ معالمَ الطّريقِ بالأميالِ؛ليعرفَ الحجّاجُ المسافاتَ التي قطعوهَا، وحُفرتْ على طولِهَا الآبارُ والعيونُ.

وغدتْ بغدادُ من أعظمِ مدنِ الدّنيا؛فقد كانتْ فريدةً في حضارتِهَا وعمارتِهَا، وتنافسَ الأغنياءُ وكبارُ رجالِ الدّنيا في إقامةِ المشاريع فيها، مثلُ حفرِ التّرعِ والأنهارِ، وتشييدِ المساجدِ، وتعبيدِ الطّرقِ، وبناءِ القصورِ الجميلةِ، فاتسعتْ بغدادُ، حتى بلغَ عددُ سكانِهَا مليون نسمةٍ، وقصدَهَا التجّارُ من كلِّ مكانٍ، وضجّتْ بالبضائعِ والنّفائسِ (جمعُ نفيسٍ، وهوالشّيءُ عظيمُ القيمةِ، يُرغبُ فيهِ)، كما غدتْ قبلةَ طالبي العلمِ الذين تحتضنُهُم المساجدُ والجامعاتُ وزوايا العلمِ، وقصدَهَا الأطباءُ والعلماءُ والمهندسون وسائرُ الصنّاعِ؛إذ كانتْ أرضاً للحريّةِ والعلمِ والجدلِ والمناقشةِ. وكانَ هارونُ الرّشيدُ ورجالُ دولتِهِ يقفون خلفَ هذهِ النّهضةِ، ويدعمون أهلَ العلمَ والابتكارِ والأدبِ والعملِ بالمالِ والهدايا والعطايا (جمعُ أعطيةٍ، وهي الهبةُ).

واستهلَّ (بدأَ) هارونُ الرّشيدُ خلافتَهُ بأن جعلَ يحيى بنَ خالدٍ البرمكي على الوزارةِ، فنهضَ بأعباءِ الدّولةِ على خيرِ وجهٍ، وضاعفَ من أموالِ الخراجِ الذي كان يدخلُ إلى بيتِ المالِ بعدَ أن تقضي الأقاليمُ الإسلاميّةُ حاجتَهَا منْهُ، حتى بلغَ الخراجَ نحو ٤٠٠ مليونَ درهمٍ.وكانَ هارونُ الرّشيدُ ينظرُ إلى الغيمةِ في السّماءِ، ويقولُ لهَا بفخرٍ: "امطري حيثُ شئتِ فسوفَ يأتي إليّ خراجُكُ".

الخليفةُ العابدُ

لم يكنْ هارونُ الرّشيدُ خليفةً لاهيّاً لاعباً غارقاً في المتعةِ، فهذهِ هي الصّورةُ المشوّهةُ التي حاولَ أعداءُ المسلمين أن يعطوها لهارونَ الرّشيدِ، ليفسدوا صورةَ الإسلامِ والمسلمين، ولكن الحقيقةَ السّاطعةَ المدعومةَ بالحقائقِ التّاريخيّةِ تقولُ إنّهُ كانَ مثالاً مشرقاً للخليفةِ المسلمِ المؤمنِ العابدِ الذي يخشى اللّهَ، ويعملُ جاهداً لمرضاتِهِ.

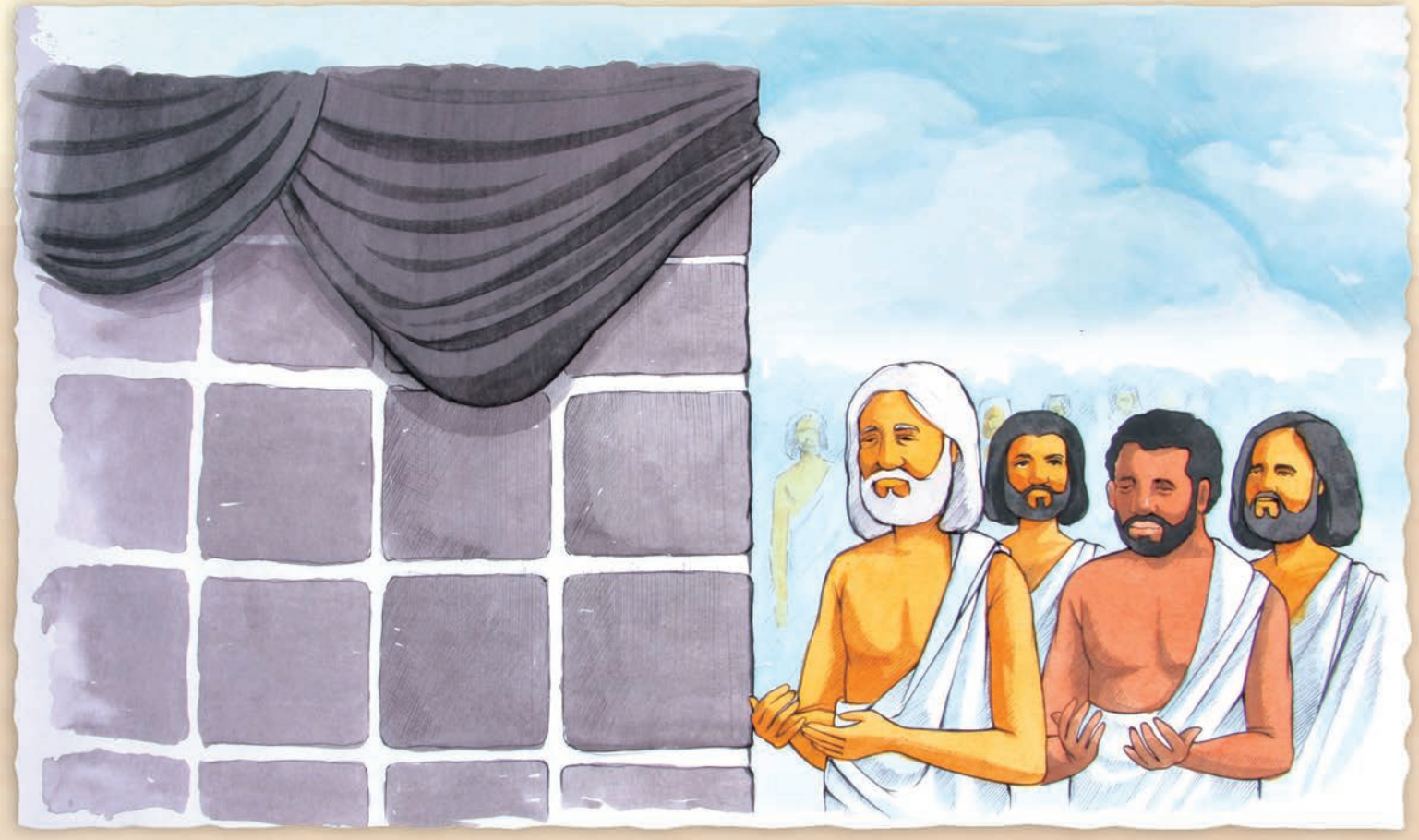

وسيرةُ هارونَ الرّشيدِ حافلةٌ بكلِّ صورِ الإيمانِ والخيرِ والعبادةِ والصّلاحِ؛ فقد كانَ يصلّي في كلِّ يومٍ مئةَ ركعةٍ، ويتصدّقُ من مالِهِ الخاصِ في كلِّ يومٍ بألفِ درهمٍ، كما كانَ كثيرَ العطاءِ للفقراءِ والسّائلين، ويحسنُ كذلكَ للعلماءَ ولطالبي العلمِ وللشّعراءِ، ويجزلُ لهُم العطاءَ، وما ذُكرَ النّبي عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ إلاّ وقالَ:"صلّى اللّه على سيدي".

وقدْ دأبَ (اعتادَ واستمرَّ) هارونُ الرّشيدُ على أنْ يحجَّ عاماً، ويغزو عاماً، فإنْ حجَّ أحجَّ معَهُ مئة من الفقهاءِ وأبنائِهم، وإنْ لم يحجّ أحجَّ ثلاثمئةٍ بالنّفقةِ الكاملةِ والكسوةِ (الملابسِ)، وقيلَ إنّهُ قد حجَّ في عامِ ١٧٩هـ ماشياً، ولم يحجّ خليفةٌ قبلَهُ ماشياً.

ولمّا وصلَ الكعبةَ، تعلّقَ بأستارِهَا، وقالَ: "يامَنْ يملكُ حوائجَ السّائلين، ويعلمُ ضميرَ الصّامتين، صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، واغفرْ لنا ذنوبَنَا، وكفّرْ عنَا سيئاتنا، يامَنْ لا تضرّهُ الذّنوبُ، ولا تخفى عليهِ العيوبُ، ولا تنقصهُ مغفرةُ الخطايا، صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ. يا من خشعتْ لَهُ الأصواتُ بأنواعِ اللّغاتِ، يسألونَهُ الحاجاتِ، إنّ مِنْ حاجتي إليكَ أن تغفرَ لي ذنوبي إذا توفيتني، وصُيّرتُ في لحدي، وتفرّقَ عني أهلي وولوا؛ اللهمَ لكَ الحمدُ حمداً يفضلُ كلَّ الحمدِ، كفضلِكَ على جميعِ الخلقِ، اللهمَ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ صلاةً تكونُ لَهُ رضا، وصلِّ عليهِ صلاةً تكونُ لَهُ ذخراً، واجزِهِ عنّا الجزاءَ الأوفى. اللهمَ أحينا سعداءَ، وتوفّنا شهداءَ، واجعلنَا سعداءَ مرزوقين، ولا تجعلنَا أشقياءَ مرجومين".

شمسٌ تغيبُ

هارونُ الرّشيدَ آمنَ بقوةٍ بأنَّ الحياةَ ليستْ إلا طريقاً إلى الآخرةِ، وبأنّ ملكَهُ مهما كانَ عظيماً فمصيرُهُ إلى زوالٍ، ولا بقاءَ إلاّ للعملِ الصّالحِ، ولذلكَ كانَ يدعو اللّه بَاكياً بحرارةٍ، وهو يقولُ: "يامَنْ لايزولُ ملكُكَ ارحمْ من زالَ ملكُهُ".

وكانّ يدعو اللّه كذلكَ أن يتوفّاهُ شهيداً مقاتلاً في سبيلِهِ، وقد استجابَ اللّه عزَّ وجلَّ لدعائِهِ الصّادقِ، فقبضَ روحَهُ وهو خارجٌ للجهادِ في مدينةِ طوس (هي مدينةٌ من مدنِ خراسانَ في إيرانَ) في خراسانَ، ودُفنَ فيها في عامِ ١٩٣هـ بعدَ مرضٍ مفاجيءٍ ألمَّ بِهِ (أصابَهُ) وعمرُهُ عندئذٍ خمسٌ وأربعون سنةٍ. فصلّى عليه ابنُهُ الصّالحُ، وبُويعَ (قَبِلَ النّاسُ أن يكونَ الخليفةَ) لولدِهِ الأمينِ في العسكرِ، وهوَ حينئذٍ في بغدادَ.

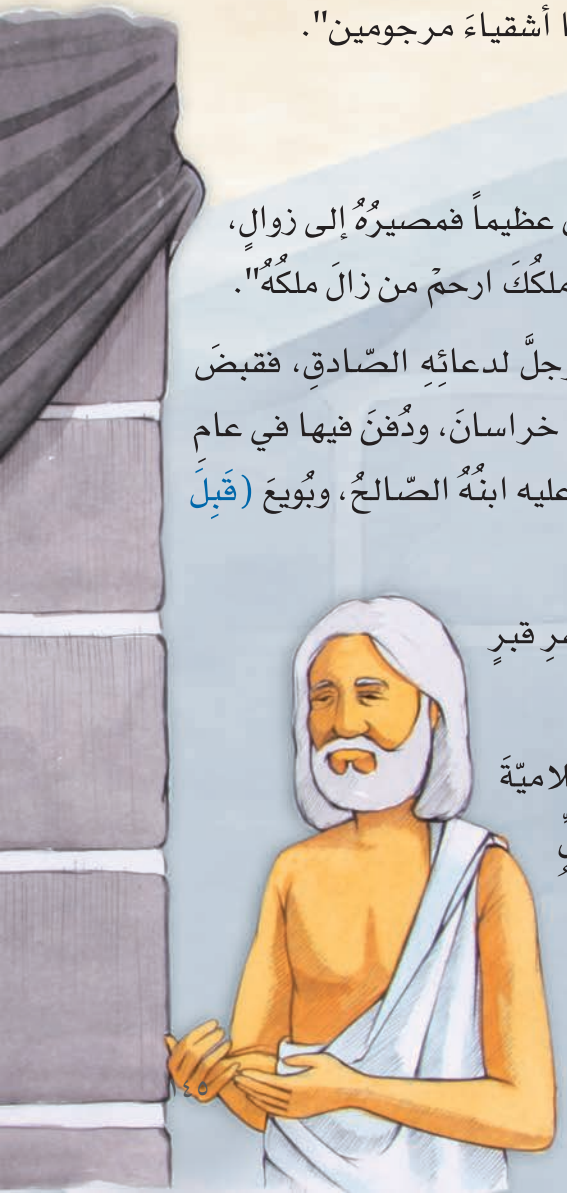

ويروى أنّ هارونَ الرّشيدَ كانَ قدْ رأى في منامِهِ أنّهُ يموتُ في طوس، فبكى، وأمرَ بحفرِ قبرٍ لَهُ فيه قبلَ أن يموتَ، ويُدفنَ في القبرِ الذي أعدَّهُ.

وبموتِ هارونَ الرّشيدِ غابتْ شمسُهُ السّاطعةُ القويّةُ التي أضاءتْ الحضارةَ الإسلاميّةَ لما يقاربُ ربعَ قرنٍ، وجعلتْ بغدادَ منارةَ علمٍ تضيءُ طريقَ المعرفةِ والحضارةِ لكلِّ العالمِ، تاركةً للإنسانيّةِ صورةً مشرقةً للخليفةِ المسلمِ العابدِ المجاهدِ.فهل يمنُّ اللّه على المسلمين بهارونَ آخر يبعثُ شمسَ المسلمين من جديدٍ؟

لوّن معنا

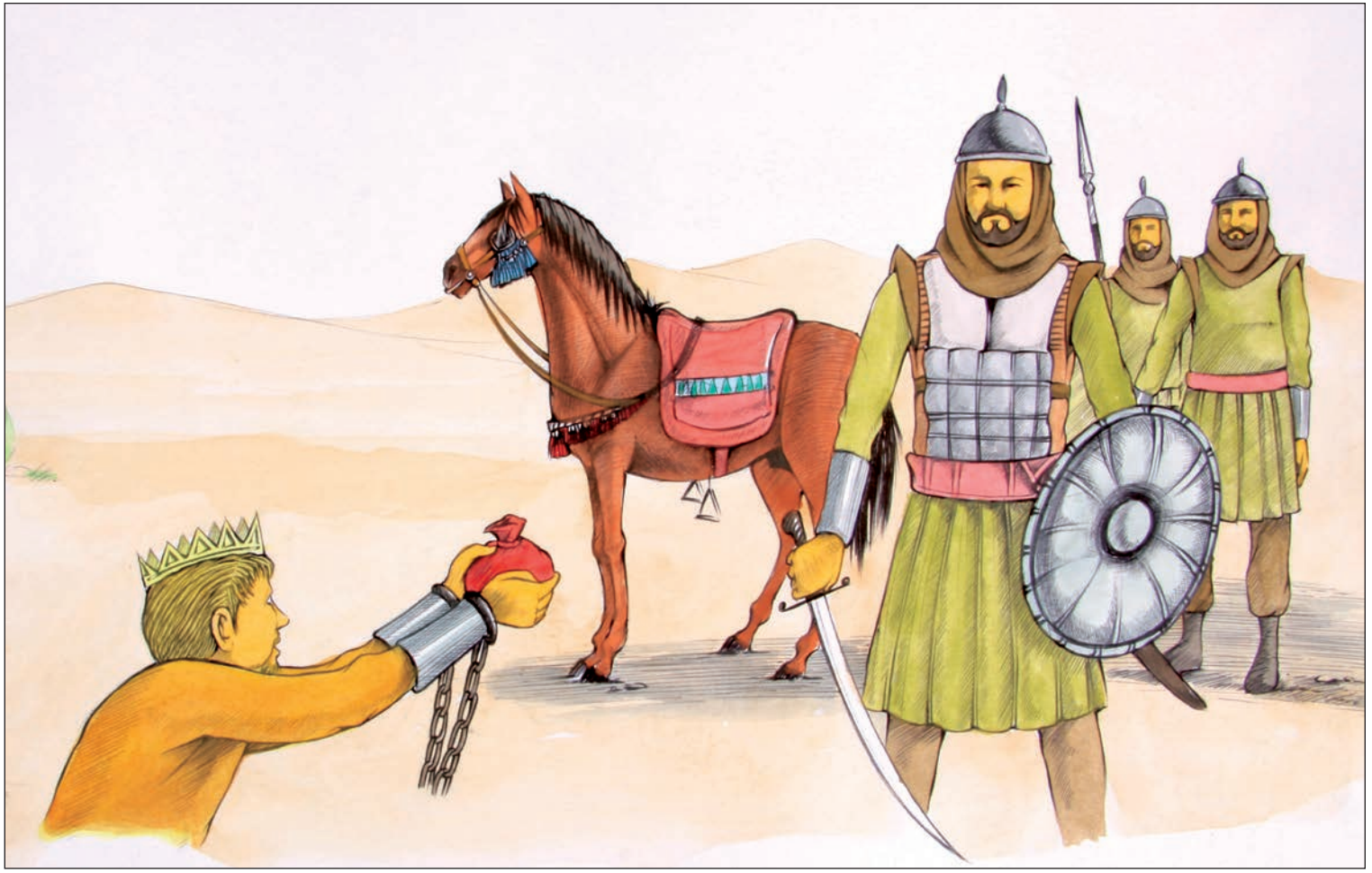

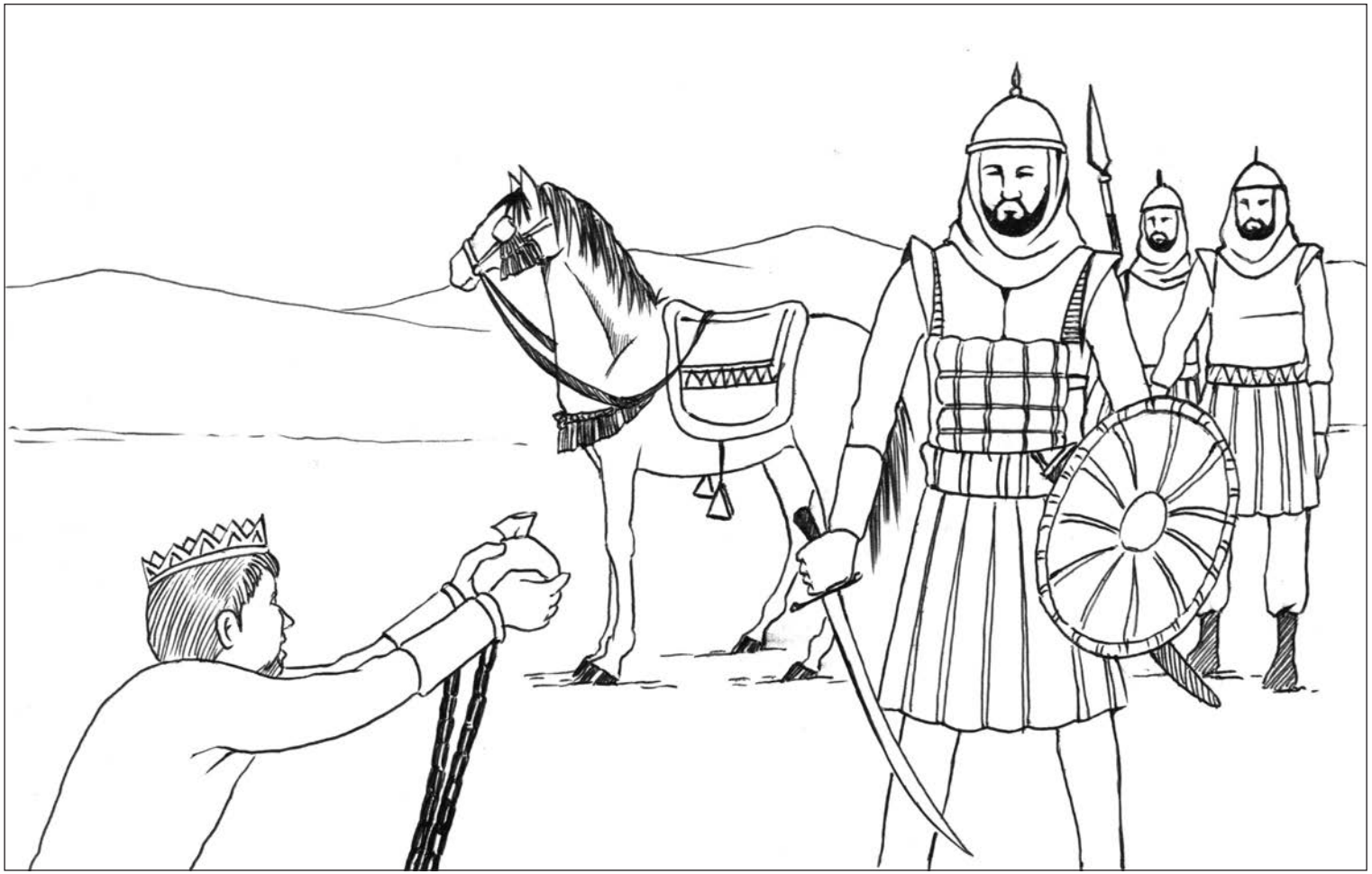

أحبّتي الصّغار يسعدني أن أعرفَ آراءكم في هذه القصةِ.

تواصلوا معي على العنوانِ التالي:

عنوان المؤلّفة: سناء شعلان

الأردن – عمان – ١١٩٤٢

ص.ب ١٣١٨٦

البريد الالكتروني: Selenapollo@hotmail.com

تذكّروا دائماً أحبّكم كثيراً